الأدب والتطرّف الفكري

تأصيل فكري في ضوء منظور التحيّز

د.مصطفى عطية جمعة

mostafa_ateia123@yahoo.com

✍ إذا أردنا تفكيك مصطلح (**التطرّف**)، سنجد أنه جملة من الأفكار والأفعال معاً، لا سبيل للفصل بينهما، فنحن نحكم على المتطرّف بأقواله وأفعاله كلّها. فيخطئ الكثيرون عندما يقفون أو- بالأدقّ – يكتفون بالنظر إلى الأفعال، وما يكتنفها من ممارسات عنيفة، ويهملون الأفكار التي قادت لمثل هذه الممارسات، فهؤلاء أشبه بمن يقطع ساق الشجرة الخبيثة، تاركاً جذورها تنبت في الأرض من جديد.

إن الشخص المتطرّف ليس كائنا مصمتاً، كما تصوّره الكتابات التي تنحو إلى التعميم والتنميط؛ فيما يسمى (صناعة الشرّير)، الذي تجعله شخصا دموياً عنيفاً متكبّراً، يعشق الدمار، ويترصّد بالأخيار الطيّبين، ويدمّر الحضارة والاستقرار.

ونحن نقول إن المتطرّف إنسان في النهاية، لن يرتكب عنفاً، قبل أن يكون مشبّعاً بفكرة. وكي يتشبّع بالفكرة حتى تتملّكه، وتقوده لأفعال عنيفة؛ لا بدّ أن تصل إليه هذه الفكرة عبر طرح منفرد يركّز على بعد واحد، ومن ثمّ يتحوّل إلى التطرّف .

وبالنظر إلى مصطلحي (**الغلوّ والتطرّف**)، نجد أن كليهما – كلفظين – بمعنى متقارب، فالغلوّ يعني مجاوزة الحدّ، أو التشدّد والتصلّب إلى مجاوزة الحدّ، وهو – تقريباً - نفس معنى التطرّف، وإن كان التطرّف أعمّ من الغلوّ اصطلاحاً. إذ يقال إن التطرّف هو إتيان غاية الشيء، ومنتهاه.

هذا، وهناك مفاهيم / مصطلحات ترتبط، وتترتّب على الغلوّ والتطرّف، مثل التنطّع والتشدّد والعنف، وكلّها بمثابة أوصاف ومظاهر للغلوّ. فالشخص الموسوم بالغلوّ يأخذ الدين بالشدّة، ويتعامل مع الآخرين بالعنف، ويتّسم بالتنطّع في أفعال الدين([٣٦٠]). وكلّ هذا ناتج عن الفهم الخطأ، الناتج عن أحاديّة المعلومة والرؤية، ممّا يجعل المتطرّف لا يقبل إلا رأياً واحداً، يراه الأصوب والأوحد، ولا يقبل ما عداه. ومن ثمّ يتحوّل إلى الفعل العنيف، لفرض هذا الرأي على الآخرين، ولمواجهة مخالفيه، كي ينزلوا على ما يريد.

ومن هنا، يتأكّد القول: إن التطرّف الفكري يؤدّي إلى التطرّف السلوكي، ولن نستطيع مواجهة الفعل إلا بتصحيح الفكر، في ضوء ضحالة الرصيد المعرفي لدى المتطرّف، وتشبّثه بآرائه الذاتية، والإفراط في التعميم، وادّعائه بامتلاك الحقيقة المطلقة، التي تفرض حلّاً واحداً، الأمر الذي يؤدّي إلى وجود فجوة بينه وبين نسيجه الاجتماعي، فتزداد غربته عن ذاته، وعن الجماعة، مما يستلزم تغيير البنية التحتية المعرفية، عبر تزويد هؤلاء المتطرّفين بجرعات علمية كافية وصحيحة([٣٦١]).

وعلى مستوى الأبعاد النفسية، فإن المتطرّف يميل إلى اغتيال الشخصيات التي تعارضه، واعتبارهم شريرين بالأصالة، وازدواجية المعايير وفق الانتماءات، والميل إلى تعريف العدوّ بأنه من نكرهه ويكرهنا، مع شخصانية العداء، والحساسية المفرطة،

---

[٣٦٠]) الغلوّ في الدين (في حياة المسلمين المعاصرة)، عبد الرحمن بن معلا الحويلق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، ص٥٨ – ٦٢.

[٣٦١]) نحو بناء استراتيجية إدارة فعّالة للتطرّف الفكري، د. طريف شوقي محمد، مجلة الفكر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العدد السادس، إبريل / يونيو ٢٠١٧م ، ص٤١ ، ٤٢.

والتحسّب المستمرّ، والميل إلى التفكير الجمعي، ومن ثـمّ تعطيـل عمليـة التفكـير الفـردي، وتصديق نظرية المؤامرة، دون تحقّق أو تدليل([٣٦٢]).

التطرّف والانحياز المعرفي :

يتلاقى ما سبق مع مفهوم الانحياز المعرفي (بمعناه المطلـق)، والـذي يعنـي – بدايـة - وجود منظومة معرفية (واعية وغير واعية)، تكون مترسّخة في ذات الإنسـان، وتـنعكس في أقواله وسلوكياته، وتكون سبيله في إصدار الأحكام والتقييمات.

فمُصطلح الانحياز / التحيز يشير إلى إظهـار أو تفضـيل لمنظـور أو أيديولوجيـة مُعيّنـة عند إصدار الأحكام والأفعال، أو تحديدًا عندما تتـدخَّل تلـك التفضـيلات الشخصـية لتـؤثِّر على النزاهة والموضوعية. وبطريقة أخرى، يمكننا القَول إن الانحياز هو الحُكم مـن منظـور واحد، ممّا يؤدّي إلى عدم الدقّـة في الحكـم، ووجـود أخطـاء. وفي علـم الـنفس الاجتماعـي تُعرف هذه الظاهرة باسم «الانحياز المعرفي-cognitive bias»، ويتصـل بـه أيضـاً الانحيـاز التأكيدي Confirmation bias، وهو ميل الناس لتفضيل المعلومات التـي تؤكّـد أفكـارهم المسبقة أو افتراضاتهم، بغضّ النظر عن صحة هذه المعلومات([٣٦٣]).

ولا شكّ أن التحيز المعرفي واقـع لـدينا جميعـاً، ولكـن الإنسـان السـويّ يتحيّـز للقـيم الإنسانية والخيرية الراقية، ولا يتعصّـب لإثنية أو عرقية أو دين أو قطرية .. إلخ، فالتعصّـب يؤدّي حتماً لانغلاق البصيرة عن رؤية موضوعية شاملة عادلة، فإذا اشـتدّ التعصّـب بـالفرد تحوّل إلى كراهية ثمّ عراك ودماء وقتل. وهذا كلّـه ينـتج مـن الشـحن الفكـري والنفسـي للمرء، فلا يرى سبيلاً للخـلاص مـن مخالفيـه إلا بمحـوهم. وهـو مـا يفعلـه بعـض الأفـراد، وتمارسـه أيضـا جماعـات ونظـم، ولا زلنـا نتـذكّر الإبـادة الجماعيـة ضـد مسـلمي البوسـنة والهرسك العام ١٩٩١(٣٠٠ ألف شهيد، ٥٠٠٠٠ مغتصبة)، تحت دعوى التعصّب / التطـرّف الديني والعرقي، وهو ما يشابه ما حدث مع مجرزة قبيلة التوتسي- في رواندا، والتـي كـان ضحاياها (٨٠٠) ألف قتيل، واغتصاب عشرات الآلاف مـن النسـاء، في فـترة لا تتجـاوز مئـة يوم عام ١٩٩٤م.

---

[٣٦٢]) الأبعاد النفسية والاجتماعية لأعمال العنف، د.محمد رفقي عيسى، منشورات المركز العالمي للوسطية، الكويت، ط١، ١٤٣٢هـ ، ٢٠١١م ، ص١٩ ، ٢٠.

[٣٦٣]) انظر مفهوم الانحياز المعرفي في موسوعة Wikibedia ، وراجع أيضاً: فقه التحيّز ، د.عبد الوهاب المسيري، ضمن: إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن ، ط٢ ، ١٩٩٦م.

فلا بدّ من التنبيه على أن ظاهرة التطرّف، ليست مقتصرة على المسلمين وحدهم: أفراداً أو جماعات، بل هي منتشرة في جميع المجتمعات الإنسانية، وتتحوّل إلى ممارسات عنيفة، عندما لا تجد مواجهة فكرية لها، خاصة في المجتمعات ذات النزعة الاستبدادية، التي تعلي صوتاً واحداً، وتضع العصا أمام معارضيها.

أيضاً، فإن مصطلح الإرهاب، المرتبط بالتطرّف، متغيّر في دلالته في الاستخدام السياسي. فبعض الدول تنعت به معارضيها في السلطة، وقديماً كانت السلطات الاستعمارية العنصرية تستخدمه في نعت حركات التحرر الوطني، والفدائيين المقاومين لها. ومن هنا، يتوجّب علينا، عند مناقشة ظاهرة الإرهاب والتطرّف، أن نعرف التشابكات المحيطة بها: في أيّ سياق تكون، وإلى أيّ مدى؟([٣٦٤]).

وإذا نظرنا إلى قضية التطرّف الديني، الذي نجده في مجتمعاتنا الإسلامية، نجد أنها قضية فكرية شرعية في الأساس، تتّصل بتعلّم العلوم الشرعيّة وتلّقيها. فكي نعالج هذا الفكر، علينا المزيد من الحوار الشرعي المؤصّل، لتصحيح الأغلاط، ومحو الأخطاء، فهي مهمة مناطة بالعلماء وأهل الشريعة، وهو ما نسمّيه التأصيل الشرعي في الردّ على المتطرّفين. وهناك جهود كثيرة تمّت في هذا المضمار، نلمسها في مئات الكتب والدراسات، التي حاججت التشدّد وانتصرت للاعتدال، من قبل علماء الشريعة المعتبرين. وبالطبع نتحفّظ – في هذا الصدد – على ولوج الأقلام العلمانية في الكتابة، وما أكثر هؤلاء، الذين راحوا يصطادون في الماء العكر، فادّعوا مواجهة التطرّف برؤية وسطية، وهم في الحقيقة يروّجون لرؤى علمانية، تسخر من الإسلام ديناً وشريعة، ومن التراث مرجعية وإبداعاً❐

[٣٦٤]) الإرهاب كأحد مظاهر استخدام العنف عربياً ودولياً، د. أسامة الغزالي حرب، ضمن أعمال العنف والسياسة في الوطن العربي، تحرير: أسامة الغزالي حرب، منشورات: منتدى الفكر العربي، عمّان، الأردن، ١٩٨٧م ، ص٢٣ ، ٢٤.